

## التاريخ الاسلامي\*

للأستاذ علي الطنطاوي

هذه حياة نعمة . . . ليست حياة واحد ، ولكنها حياة أمة ، أمة حملت مصباح النور ، حين عمّ الكون الظلام ، وأرشدت العالم التائه في عباب الجهل ، الى شاطئ العلم ، وكانت حضارتها المدرسة الثانوية التي خرّجت العقل البشري وثقافته ، كما خرّجته المدرسة الابتدائية اليونانية من قبل وثقافته . . . فكان لها الفضل على كل إنسان !

حياة أبي بكر هي الصفحة الأولى من التاريخ الاسلامي ، الذي بهر كل تاريخ وبذّه ، والذي لم تحو تواريخ الأمم مجتمعة بعض ما حوى من الشرف ، والمجد ، والاخلاص :

ذلك لأنه تاريخ الكمال الانساني على وجه الأرض . . . تاريخ المعجزة التي ظهرت في بطن مكة على يد رجل واحد ؛ فلم تلبث حتى عمت مكة ، ثم امتدت حتى شملت الجزيرة ، ثم امتدت حتى بلغت أقصى الأرض . . . فكانت أكبر من الأرض ، فامتدت في الزمان . . . وستبلى الأرض ، ويفنى الزمان ، والمعجزة باقية :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) — (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

ذلك لأنه تاريخ الاسلام ، الذي بدأ سرّه في هذه الأمة البادية الجاهلة المتفرقة ، فجعل منها أمة لم يكن ولن يكون لها نظير . . . امتزجت روح الاسلام بأرواح المسلمين وغلبت عليها ، ثم استأصلت منها حبّ الدنيا ، وانترعت منها الطمع والحسد ، والفش والكذب ، وأنشأت من أصحابها قوماً هم خلاصة البشر ، وغاية ما يبلغه السمو الانساني . . .

أنشأت من أصحابها قوماً يقضون لله ، ويرضون لله ، ويصمتون لله ، وينطقون لله ، قد ماتت في نفوسهم الأهواء ، وبادت منها الشهوات ، ولم يبق إلا دين يهدي ، وعقل يستهدي

\* مقدمة كتاب في سيرة أبي بكر الصديق سينشره الأستاذ في ١٥ فبراير سنة ١٩٣٥ في أكثر من ٣٠٠ صفحة

كاتب اقتصادي وثبة اليابان الصناعية في هذه الكلمات : « إن الأجور الصناعية في اليابان سويت بالأجور الزراعية ، وغدت ثلث ما كانت عليه سنة ١٩٢٩ ؛ وأسبوع العمل ستون ساعة ؛ وقد يبلغ طبقاً لبعض الاحصاءات في صناعة القطن مائة وعشرين ساعة ، وفي اليابان شمم يزيد في العام مليوناً ، والعنصر البشري يعنى به أكثر مما يعنى بالآلات . . . وتلك في الواقع مدينة صناعية جديدة تجمع بين النظم الفنية الأمريكية ورخص العمل الشرقي ، فقدر المصنع الياباني يتناول مرتباً قدره ( ١٧٠٠ ليرة ) ( نحو ٣٠ جنياً ) وهو خمس ما يتناوله زميله الأمريكي . وأغان النتوجات اليابانية أقل بحو خمسة وثلاثين في المائة من أثمان متوجات أي سوق أوروبية أو أمريكية » . وأشار السنيور موسوليني في إحدى خطبه أمام مجلس النقابات الصناعي إلى مهنة اليابان الصناعية بقوله : « هنالك فيما وراء الاطالانطيق تفتحت مشاريع صناعية ورأسمالية هائلة ؛ ولكن نعمة في الشرق الأقصى توجد اليابان ، وهي منذ أن اتصلت بأوروبا في حرب سنة ١٩٠٥ ، تقدم نحو الغرب بخطى شاسعة »

ويجب أن نذكر ما لنشاط اليابان البحري من أثر في تنظيم هذا الغزو ، فاليابان أسطول تجاري ضخم يربطها بأوروبا وأمريكا وجميع أنحاء العالم ؛ ويعمل هذا الأسطول لحمل التجارة اليابانية إلى ما وراء البحار في ظروف مشجعة جداً ، ويصطبغ عمله بلون التعاون القوي لأنه يعتبر أداة قوية لنشر التجارة اليابانية تسخر كل قواها ونشاطها لتحقيق هذه الغاية

وسنحاول أن نبحت في فصل آخر ما لهذا الغزو الاقتصادي الياباني من أثر في السوق المصرية وفي الاقتصاد المصري ما

محمد عبد الله عنانه  
الحامى

### الرواية المسرحية في التاريخ والفن

بحث مفصل تناول أطوار الرواية وأنواعها وقواعدها ومذاهبها من العصور اليونانية الى اليوم تجده منشوراً في كتاب

### في أصول الأدب

الذي يصدر هذا الأسبوع

وهذا النور الذي أشرق على نفوسهم ، وهذه القوة التي عادت بها عليهم عقيدة التوحيد :

علموا أن الله هو الفعال لما يريد ، وأنه المتصرف في جميع الأكوان ، وأن كل شيء بقضاء منه وقدر ، وأهمهم إن غيب عنهم القدر ، وخلق عليهم علمه ، فقد أنزل عليهم القرآن ، ووضح لهم سبيله فاتبعوا القرآن ، ووقفوا عند أمره وهيبه ، فكتبوا في سجل القدر من السعداء

والمؤمن الذي يعلم أن الله هو الفرد الصمد ، الواحد الأحد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وأنه لا يجير عليه من نبي ولا رسول ، ولا يشفع عنده إلا بإذنه ، وليس بينه وبين العبد واسطة ولا نسب ، ويعلم أن الله ينصر من ينصره ، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، لا يسأل إلا الله ، ولا يستعين إلا بالله ، ولا يبالي بشيء إذا كان مع الله ، ولا يطمع في جوار أحد إذا كان جاراً لله ، ولا يحفل بالدنيا وما فيها إذا باع نفسه من الله راضياً مختاراً ، بأن له الجنة . . .

\*\*\*

كانت هذه العقيدة أصل كل خير ناله المسلمون الأولون ، وكان وهنبا في النفوس أصل كل شر نال المسلمين المتأخرين الذين أفسدوا عقيدة التوحيد بما شرعوا لأنفسهم من البدع والمقائد ، فتفرقوا أيدي سباً ، وذكروا في أرضهم ، وهو جوار في عقر دارهم ، وحفظ المسلمون الأولون على هذه العقيدة صفاءها وجمالها . ففتحوا ما فتحوا ، وكان فتحهم أمجوبة التاريخ ، بقف أمامها العقل خاشعاً للعظمة والجلال ، حارماً للتموض والخلفاء :

أمة بدوية على غاية ما تكون عليه الأمم البادية من الخلاف والجهل ، لا دين يوحد قبائلها ويهذب من نفوسها ، ولا جامعة تجمعها ، ولا حكومة تدير أمورها ، اللهم إلا حكومة في المراق تخضع للوك العجم ، وحكومة في الشام تطيع ملوك الروم وتلبث على ذلك عبوراً . . . ثم نهض نهضة الأسد ، تحمل في عنائها نور القرآن ، تضيء به للشعوب طريق المجد في الدنيا ، والسعادة في الآخرة . وفي يسراها السيف تردُّ به الضالين الماندين ، المصيرين على الضلال ، إلى سبيل الحق والهدى

ويبدو فيها سر الإسلام بيتاً جلياً ، فاذا هذا التفرق وهذه

قوم كان دليلهم الدين ، وقانونهم هدى سيد المرسلين ، وشمارهم شعار الساكنين ، وعيشهم عيش الزاهدين ، ثم كانت فتوحهم فتوح الملوك الجبارين ، وكانوا سادة العالمين ؛ لم يمنهم زهدهم من أن يكونوا أبطال الحروب وسادة الدنيا ، ولم يفتنهم ما نالوا من مجد ، وما بلغوا من جاه ، عن دينهم وتقواهم

قوم ينصب لهم أميرهم قاضياً ، فيلبث سنة لا يختصم إليه اثنين<sup>(١)</sup> ولم يكونوا ليختصموا وبين أيديهم القرآن ، وكل واحد منهم يعرف ما يحق له ، فلا يطلب أكثر منه ، ويعرف ما يجب عليه فلا يقصر في القيام به ، ويحب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه ، ويسى ليلم الناس من لسانه ويده ؛ إذا مرض المسلم عادة المسلمون ، وإذا افتقر أعانوه ، وإذا أحسن شكروه ، وإذا ظلم نصره ، وإذا ظلم ردعوه ، دينهم نصيحة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، فقيم يختصمون ؟

أما إنهم لا يختصمون إلا على مكرمة وإحسان ، ولقد كان عمر يتعاهد عجوزاً عمياء ، في بعض حواشي المدينة ، فكان يجيئها سحراً ، فيجد امرأة قد سبقه إليها فبرها وأحسن إليها ، واستسقى لها وأصلح من أمرها ، فيعجب منه ويزيد في البكور ، فلا يسبقه ، فرصده مرة من أول الليل ، حتى جاء فاذا هو . . . أبو بكر الصديق ، وهو يومئذ خليفة<sup>(٢)</sup>

أبو بكر وعمر يستبقان إلى برّ عجوز عمياء ، في بعض حواشي المدينة . . . الله أكبر ! عفت أم التاريخ أنت تلد مثل هذا التاريخ الذي يأتي بسيد الأمة ، في ثوب خادم الأمة ، حتى يفتش في الليل عن عجوز عمياء ، أو رجل مقعد ، أو أسرة محتاجة ، أو مظلوم ضعيف ، أو ظالم عاتٍ — ليخدم العجوز ، ويحمل المقعد ، ويساعد المحتاج ، وينصر المظلوم ، ويأخذ على يد الظالم ، لا يبتنى على ذلك جزاء ولا شكوراً ، لأنه يعمل لله ، ولا يرجو الثواب من غير الله . . .

الله أكبر ! ضل قوم زعموا أن الإسلام إنما انتشر بالسيف ، لا والله ! إنما انتشر بمثل هذه الأخلاق النبوية ، إنما فتح المسلمون ثلاثة أرباع العالم المتمدن ، بهذا الإيمان الذي ملأ قلوبهم ،

(١) الأمير أبو بكر والقاضي عمر رضي الله عنهما

(٢) منتخب كنز العمال قال : رواه الخطيب عن أبي صالح الغفاري

والهدى ، والمدل والفتى ، إلى البلاد التي نفتحها ، وكنا لا نعدم إلى الحرب إلا إذا اختار أعداؤنا الحرب ، وأبوا أن يلبو داعي الله — ثم لا نخون ولا نغدر ، ولا نقل ولا نعتل ، ولا نقتل رسولاً ولا نهدم منزلاً ، ولا ننازل عُزَلاً ، ولا نهبج معتزلاً ، ولا نغش عابداً متبتلاً (١)

ثم إذا صالحنا أعداؤنا ، ودخلوا في ذمتنا ، حينئذ مما نحصى منه أولادنا وأهلينا ، وإذا أسلموا كانوا إخواننا لهم مثلنا وعليهم ما علينا ، لا يفرق بين المسلمين عرق ولا لفة ، ولا جاه ولا نسب ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى (٢)

فأين هذه الفتوح من فتوح الاستعمار التي أثارها أوروبا ؟ فتحنا البلاد فتركنا أهلها أحراراً في دينهم ومعايهم ، أحراراً في قضائهم ونظمتهم ، أحراراً في أموالهم وأولادهم ، فملكنا بالمدل قلوب الناس ، وأسعدناهم بالعلم ، وبسطنا عليهم ظلال الأمن ، ونشرنا فوقهم لواء الحضارة ، حتى لقد صار أهل البلاد يستصرخون المسلمين على حكوماتهم ، ويبتذلون لهم عروشهم على ملوكهم (٣) لا بفضاً لملوكهم ولا عداً لأوطانهم ، ولكن حباً في العدل ، ورغبة في السلام ، وشوقاً إلى العلم والحضارة وال عمران فتحنا الحيرة فأهدى أهلها طائمين مختارين هدية إلى أبي بكر قبلها وعددها من الجزية عدلاً منه وتمعفاً ، وخشية أن يظلم أهل ذمته ، أو أن يكلفهم شططاً ، وتفتحون البلاد فتبتزرون

(١) هذا مضمون وصية أبي بكر لأمامة وجيشه حين بعث به إلى الشام (٢) أي إن الوطنية في الإسلام هي الدين ، والأخوة أخوة الإسلام . أما هذه البدعة الجديدة ، بدعة القوميات التي فرقوا بها بين المسلمين ، وقالوا : تركي وعربي ، ومصري وعراقي ، فلا تنفق والإسلام في شيء — والقرب نفسه بدأ يعدل عن الجامعة القومية الضيقة إلى جامعة إيمانية واسعة ، أي إنه بدأ يرجع لقواعد الإسلام . وهاكم الفاشية والنازية والبشوية ، بل هاكم المساوية ذاتها

(٣) كما وقع في حمص أثناء الفتح ، وفي الأندلس من بعد : روى البلاذري في فتوح البلدان أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجوع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة البرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الحراج ، وقالوا : قد شغلنا عن نصرتهكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . . . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والظنم ، ولندفن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهش اليهود وقالوا : والتوراة ، لا يدخل أهل هرقل مدينة حمص إلا أن تنلب عليها ونجهد . فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا : إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فانا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد

الجاهلية ، أخوة في الإسلام ، وتمسك بالفضائل ، وإذا هذا الضعف قوة لا تعدلها قوة ، وإذا هذه الحمية الجاهلية تواضع لله ، ورضا بأحكامه ، وتزول عند أواسره ونواهيه ، وإذا بدوى من بني وهيب (١) يكون بسر الإسلام — قائداً من أعظم قواد الدنيا — يهدى أقوى صرح للظلم ، ويدك أكبر بنيان للجور على وجه الأرض ، ويفرس في (القادسية) مكان الجبروت الفارسي بذور الحضارة الإسلامية التي نمت وأزهرت حتى أظلت الدنيا وإذا بدوى قاس غليظ من بني عدى (٢) يكون بسر الإسلام عظيمًا من عطاء التاريخ ، يبرز في العلم والسياسة والبلاغة ، ويكون له القدر المعلى ، في فنون الفكر ، وفنون الحرب ، وفنون القول ، ويسوس وحده الجزيرة وسورية والعراق ومصر وإفريقية فلا يعرف التاريخ عدل ولا أقوم ولا أفضل منه — حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه في النار . وإذا تاجر من تجار مكة (٣) يكون بسر الإسلام ، أعظم العطاء ، بعد الأنبياء

\*\*\*

هذه أمجوبة التاريخ ، وهذا هو الفتح الأعظم !

أجل ! إن الفتح الإسلامي هو الفتح الأعظم ، الذي لم يعرف التاريخ فتحاً مثله . وكثير هم الفاتحون ، الذين فتحوا بلاداً واسعة بسيفهم ، وأخضعوها بجندهم ، وحكموها بقوتهم وسطوتهم ، ولكن ليس فيهم مثل المسلمين ، الذين فتحوا البلاد بإيمانهم ، وفتحوا القلوب بصدقهم ، وفتحوا العقول بعلمهم ، فكانوا أصحاب السلطان ، وكانوا دعاة الايمان ، وكانوا بناة المجد والحضارة وال عمران

طبّقوا في القرن السابع قواعد الحرب الانسانية — التي علمت بها أوربة في القرن التاسع عشر وسمت إلى تطبيقها في القرن العشرين ، فلما لم تفلح وغلبت طباعها الذئبية على إنسانيتها المصطنعة ، اكتفت منها بتسطيرها في كتب الحقوق الدولية وأخذ المجددون من الشرقيين . . . يربقها ولماها !

لقد فتحنا ثلاثة أرباع العالم المتمدن ، ولكننا كنا نحمل العلم

(١) سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (٢) عمير بن الخطاب رضي الله عنه (٣) أبو بكر رضي الله عنه

أموالها ابتزازاً ، وتمنصون دماءها امتصاصاً ، وتمدون أيديكم إلى كل خير فيها

هكذا كانت فتوحنا. وهذه فتوحكم :

مَلَكْنَا فَكَانَ الْعَدْلُ مِنَّا سَحِيحًا

فَلَمَّا مَلَكَكُمْ سَأَلَ بِالْذَّمِّ . أَبْطَحُ

وَحَلَلْتُمْ قَتَلَ الْأَسْرَى وَطَالَ

عَدْوَانَا عَلَى الْأَسْرَى نَمْنٌ وَتَصَفَحُ

فَحَسِبْتُمْ هَذَا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا

فَكُلُّهُ إِذَا بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ

\*\*\*

ولم يظهر سر الأسلام في الفتوح ، وفي الخلفاء والأمرء فقط ، بل لقد ظهر في المسلمين جميعاً ، فجعل من نفوس النساء والمجانز والأطفال مناراً يهتدى به الناس ، ومثلاً أعلى للنفوس الكبيرة ، حتى أن أبا بكر يقسم مالا بين النساء ، ويمت إلى عجوز من بني النجار بقسمها من هذا المال ، مع زيد بن ثابت فتقول : - ما هذا ؟ - فيقول : مال قسمه أبو بكر بين النساء

- فتقول : أترشونني عن ديني فيقول : لا

- فتقول : أتحافون أن أدع ما أنا عليه ؟ - فيقول : لا

- فتقول : والله لا آخذ منه شيئاً<sup>(١)</sup>

لا تأخذ منه شيئاً ، لأنها لم تسلم رغبة ولا رهبة ، ولكنها أسلمت لله ، فهي تبتني ما عند الله

لا تأخذ منه شيئاً ، لأنها لا تحب أن يدخل بينها وبين ربها فيشغلها عن الأخلاص لدينها ، ويطعمها المال في الملل ، فتزيد في العبادة ، وتبالغ في التدين ، فتكون كأنما تعبدت للمال ، وعقيدة التوحيد ، التي استقرت في نفس هذه المجوز ، كما استقرت في كبار الصحابة وعلماهم ، تدفعها إلى أن تعمل لله وحده ، وتسال الله وحده ، وتؤمن بالله وحده

وتجتمع فئة من المسلمين معارضة تريد أن تستأثر بالحكم ، لأنها ترى لها فيه حقاً ، ولا تقبل في ذلك هوادة ، ثم يأتيها ثلاثة رجال من الفئة التي تعارضها ، وتجتمع لتناوئها ، فترجع عما اعزمته بكلمة واحدة تبصر فيها ضياء الحق

(١) ابن سعد في الطبقات

قال عمر للأنصار يوم السقيفة :

- ألستم تعلمون أن رسول الله صلى عليه وسلم قدم أبا بكر

للصلاة ؟

- قالوا بلى

- قال : فأبكم تطيب نفسه أن يتقدم من قدمه رسول الله

صلى الله عليه وسلم ؟

- قالوا : لا أحداً !

- ثم قاموا ينتدرون البيعة<sup>(١)</sup>

فأين هذا من منازعات الأحزاب على الحكم في الدول الراقية في القرن العشرين ؟ وأين ديمقراطية أوربة ودعواها الخلاص من

الحكم الفردي من ديمقراطية المسلمين الأولين ؟

أما إن استبداد لويس الرابع عشر ، هو استبداد روبسبير ، وهو هو استبداد هتلر ، لم تنج أوربة من الاستبداد في الحكم يوماً واحداً ، ولم يحقق النظام البرلماني شيئاً من أمانها الديمقراطية ومبادئها البراقة التي تخدع بها الأطفال الكبار من الشرقيين<sup>(٢)</sup>

أما نظام الحكم في الأسلام ، فهو النظام الديمقراطي الصحيح ، الذي لا يجعل من أمير المؤمنين أكثر من منفذ للقانون الآلهي

الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهو أبعد شيء عن النظام الملكي الوراثي . وكان المسلمون الأولون

يفهمون هذا النظام أصح فهم وأجوده ، وكان العامل من عملهم يعلم أنه إنما يسأل عن عمله بين يدي الله ، وإنما يقوم به لمصلحة

المسلمين لا لرضاء أمير المؤمنين ، وقد يسألون في ذلك حتى أن

معاذ بن أيمن يقدم المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول له أبو بكر : ارفع حسابك . فيقول : أحسابان :

حساب من الله وحساب منكم ؟ والله لا ألي لكم عملاً أبداً<sup>(٣)</sup>

ويطلب أمير المؤمنين عثمان من خزانه مالا ، فيأباه عليه . فيقول : « إنما أنت خازن لنا ، إذا أعطيناك نخذ ، وإذا سكتنا

عنك فاسكت »

(١) رواه النسائي والحاكم وصححه

(٢) يقول ذلك الأستاذ خير أحد جهابذة الحقوق العامة الفرنسية ويشبهه بالمجيع والأرقام ؛ في مقال له ممتع ، في الصفحة ١٦٦ من العدد الثاني من مجلة الحقوق العامة والعلم السبلي في سنة ١٩٢٧ . وهذا المقال صفة توبة لأنصار هذا النظام

(٣) عيون الأخبار